﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إتمامُ ذِكْرِ ما أنعمَ اللهُ به على قومِ سبأ بِنِعَمٍ عظيمةٍ في حَضَرِهم وسَفَرِهم

تَكمِلةُ القِصَّةِ بذِكرِ نِعمةٍ بعدَ نِعمةٍ؛ فإنَّ ما تقدَّمَ: لنِعمةِ الرَّخاءِ والبَهجةِ، وطيبِ الإقامةِ، وها هنا: لنِعمةِ الأمنِ، وتيسيرِ الأسفارِ، وعُمرانِ بلادِهم[1]، أو أنّه بعد أنْ حكى سبحانه ما أوتوا من النّعم في مساكنهم، ثمّ كفرانهم بها، وما جوزوا به من الخرابِ والدّمار؛ قصّ علينا ما أُعْطَوه من النّعم في مسايرهم ومتاجرهم، ثمّ جحودهم بها، ثمّ ما حاقَ بهم بسببِ ذلك فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰرَكْنَا﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثَباتِ الشَّيْءِ، يُقالُ: بَرَكَ فُلانٌ عَلَى الأمْرِ وبارَكَ: إذا واظَبَ عَلَيْهِ، والبَرَكَةُ مِنَ الزِّيادَةِ والنَّماءِ، يُقال: ما أبركَ هَذا الطَّعام؛ أَيْ: ما أنماه؟! والتَّبْريكُ: أَنْ تَدْعوَ بالبَرَكَةِ، و﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 54] تَمْجيدٌ وتَجْليلٌ[3]، وتباركَ لا يوصفُ بِهِ إلّا اللّه سبحانه، والبركةُ: كثرةُ الخيرِ وتزايده، وخُصّتْ البركةُ بثبوتِ الخيرِ الإلهيّ والفيضِ الرّبّانيّ[4]، ومعنى ﴿بَٰرَكْنَا﴾؛ أَيْ: وسَّعنا على أهلها في النّعمِ والمياه[5].

2) ﴿وَقَدَّرْنَا﴾: (قدر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 174.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 485، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 73.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (برك).
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 119، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 183.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 386، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 60.

ونِهايَتِه[1]، وقَدّر من التّقدير، وقَدَّره وقَدَره: بمعنًى، وقَدْرُ كلّ شيء: قياسُه ومَبْلغُه، و(قَدَّر) إمّا لبيانِ القَدْرِ المادّيّ، وإمّا بمعنى التّهيئة للقَدْر، أو إحكامه والقضاء به ماديًّا أو معنويًّا[2]، ويُقال: بَيْنَ أَرضِك وأَرْضِ فلان لَيْلَةٌ قادِرَةٌ؛ أيْ: هَيِّنَةٌ لَيِّنَةُ السَّيْرِ لا تَعَبَ فيها[3]، ومعنى ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾؛ أيْ: سيرًا مُقدّرًا، وأَبْعادَها على تَقْديرٍ وتَعادُلٍ، فجعلنا المسافات بينها مقدّرةً قريبةً حسبَ ما يحتاجُ المسافرون إليه بحيثُ يسهلُ التّنقّل بينها[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حِكايةٌ لِما أوتوا مِن النِّعَمِ البادِيةِ في مَساكِنِهم في أماكِنَ آمِنةٍ وقرى متواصلةٍ

يبيّنُ اللّه أنّه جمعَ لهم مع العيشِ الهنيء في بلادهم العيشَ الهنيءَ في مَسايرِهم ومَتاجِرِهم في بلادٍ مَرضيَّةٍ وأماكن آمنةٍ وقرى متواصلةٍ؛ فقال: وجعلنا بين قراهم وقرى الشام التي باركنا فيها بالتّوسعة على أهلها قرىً متواصلةً يظهرُ بعضها لبعض، لأنّها مبنيّةٌ على آكامٍ عاليةٍ، وجعلنا بين بعضها مقاديرَ متناسبةً بحيث يقبلُ الغادي في قرية، ويبيتُ الرائحُ في أخرى إلى أن يصلَ إلى الشام، وهو لا يحملُ معه زادًا ولا ماءً، وقلنا لهم سيروا في هذه القرى التي بين قراكم وقرى الشام التي باركنا فيها لياليَ وأيامًا، وأنتم آمنون لا تخشون جوعًا ولا عطشًا، ولا عدوًّا يبطشُ بكم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾:

تَكْميلٌ لِما أوتوا مِن أنْواعِ النَّعْماءِ، وتَوْفيرٌ لَها في الحَضَرِ والسَّفَرِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قدر).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (قدر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 387، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 261.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 73.

قُرَى ظَٰهِرَةً﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ﴾، لا على ما بَعْدَهُ مِنَ الجُمَلِ النّاطِقَةِ بِأفْعالِهِمْ، أوْ بأجْزِيَتِها؛ أيْ: عَطَفَ ما أوتوا مِن النِّعَمِ البادِيةِ في مَسايِرِهم ومَتاجِرِهم على نِعمةِ الرَّخاءِ والبَهجةِ وطيبِ الإقامةِ؛ وذلك تَكملةً لِقصَّةِ سَبأٍ بذِكرِ نِعمةٍ بعْدَ نِعمةٍ، وبَيانٌ لِعاقبتِهم؛ أيْ: ذَكَرَ حالَ نَفْسِ بَلَدِهِمْ، وبَيَّنَ تَبْديلَ ذَلِكَ بِالخَمْطِ والأثْلِ[1]، ثُمَّ ذَكَرَ حالَ خارِجِ بَلَدِهِمْ، وذَكَرَ عِمارَتَها بِكَثْرَةِ القُرى، ثُمَّ ذَكَرَ تَبْديلَهُ ذلك بِالمَفاوِزِ والبَيادي والبَراري[2]، وإنَّما لم يُذكَرِ الكلُّ معًا؛ لِما في التَّثنيَةِ والتَّكريرِ مِن زيادةِ تَنبيهٍ وتَذكيرٍ[3].

دلالة التّعبير بـ (الجَعْل)، ولطيفةُ صَوْغِه ماضيًا:

إحداثُ القرى الظّاهرةِ وتصييرُها محلًّا لكمالِ الانتفاعِ بها أمرٌ قد تحقّق

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ الحكيمُ بلفظِ (الجَعْل) دونَ غيرِه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾؛ لأنَّه لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلّها، فهو أعمّ من (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائرِ أخواتها، ومن معانيه: الخَلْق[4]، ولذا ذكرَ بعضُ العلماءِ أنّ الآيةَ فيها دلالةٌ على خَلْقِ اللّهِ للأفعال؛ لأنّه سبحانه أخبرَ أنّه جعلَ قرًى ظاهرةً، والقُرى ما اتّخذها أهلُها، ولكونه أنسبَ للمقام، وهو بناءُ هذه القُرى واستنباطُ آبارِها ومصانعِها وتخصيصُ مَنْ يرعاها ويحفظُها؛ لأنّ الجَعْلَ في اللّغة فيه معنى التّهيئة والتّضمين والتّبعيّة، وإحداثُ شيءٍ من شيءٍ وتكوينِه منه[5].

ما قدَّره الله كائنٌ مُتحقِّقُ الوقوعِ

وقد صيغ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ ماضيًا للدِّلالةِ على تحقُّقِ الوقوعِ؛ أيْ: وقوعِ فعل الجَعْل، وهو إحداثُ هذه القُرى الظّاهرةِ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 495، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 174.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 201.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 128.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 439.
(5) الرّاغب، المفردات: (جعل).

وتصييرُها محلًّا لكمالِ الانتفاعِ لأهلِ سبأ؛ فهو كنايةٌ عن حَدَثٍ قد مضى وانقضى؛ أيْ: قد تحقّقَ ولا مجالَ لإنكاره، فهم يرون آثارَه.

غرضُ الإسناد في ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

عظمةُ المنعمِ سبحانه دلالةٌ على عظمةِ إنعامِه بالقُرى الظّاهرة

القُرى الظّاهرةُ يُحتمَلُ أنّها تكوّنتْ من عملِ النّاس القاطنين حَفافي الطَّريقِ السّابِلَةِ بين مأرب وجِلَّقَ؛ لقصدِ استجلابِ الانتفاع بنزولِ القوافل بينهم، وابتياعِ الأزوادِ منهم، ويُحتمَلُ أنّ سبأ أقاموا مباني يأوون إليها عند كلِّ مرحلةٍ من مراحل أسفارهم، وهذا من جملةِ ما وطَّدَ لهم ملوكُهُم مِن أسبابِ الحضارَةِ والأمنِ على القوافلِ، فكان إسنادُ جَعْل تلك القرى إلى اللّه تعالى؛ لأنّه المُلْهِمُ النّاسَ والملوك، أو لأنّه الذي خلقَ لهم تربةً طيّبة تتوفرُ محاصيلُها على حاجةِ السّكانِ، فتسمحُ لهم بتطلبِ ترويجها في بلاد أخرى[1].

التّعبير بضمير العظَمة في ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

عظَمةُ النِّعمةِ من عِظَمِ خالقها

التّعبير بضميرِ العظَمة للدّلالة على عِظَمِ هذه النّعمة، فالعظيمُ لا تكونُ نعمُه إلّا عظيمةً سبحانه؛ أيْ: جعلنا هذه القرى بما لنا من العظَمة[2]، وتتمثّلُ هذه النّعمة في أنّ أهلَ سبأ كانوا إذا خرجوا من مأرب إلى البلادِ الشّاميّة في قوافلَ للتّجارةِ وبيعِ الطّعام؛ سلكوا طريقَ تهامة، ثمّ الحجازِ، ثمّ مشارفِ الشّام، ثمّ بلادِ الشّام، فكانوا كلّما ساروا مرحلةً وجدوا قريةً أو بلدًا أو دارًا للاستراحةِ واستراحوا وتزودوا؛ فكانوا من أجلِ ذلك لا يحملون معهم أزوادًا إذا خرجوا من مأرب[3].

نُكْتَةُ التّعبير بالبينيّة وتكرارُها:

(بين) موضوعةٌ للخَلِ بين الشّيئَيْن ووسطِهما، ولا تستعملُ إلّا فيما له مسافة، نحو بين البلدين[4]، وهي هنا في قوله: ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

(بين) موضوعةٌ للمسافةِ بين مساكن سبأ وقرى بلادِ الشّام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 485.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 174.
(4) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 221.

ٱلْقُرَى﴾ كذلك، وقد أُضيفتْ (بين) الأولى وهي قولُه: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ إلى الضّميرِ الرّاجعِ إلى قومِ سبأ، وأُضيفتْ (بين) الثّانية وهي قوله: ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾ إلى الاسمِ الظّاهر وهو: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾؛ وذلك لأنّ (بين) ظرفٌ مبهمٌ لا يتبيّنُ معناه إلّا بإضافته إلى اسمَيْن فصاعِدًا، أو ما يقومُ مقامَهما، والمعنى: وجعلنا بينَ مساكنِ قومِ سبأ وقُرى بلادِ الشّام قرًى ظاهرة.

مهما بلغ شُكرُ العبادِ؛ فلن يُقَدّروا النّعمة حقّها

أعادَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (بين) في قوله: ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾ بعد ﴿بَيْنَهُمْ﴾، ولم يكتفِ بحرفِ العطف، فلم يَقُلْ: (وجعلنا بينهم والقرى)؛ لوجوبِ إعادةِ ذِكْرها حتى يستقيمَ المعنى؛ لأنّها من صورةِ عطفِ الظّاهر على الضّمير بعد (بين)، وفي تكرارها ما يضفي كذلك إيقاعًا جميلًا على الآية، ممّا يساعدُ في تيسيرِ حفظها وتذكّرها.

غرضُ تقديم الظّرف ﴿بَيْنَهُمْ﴾:

اهتمامٌ بما كانَ يَهُمُّ أهلَ سبأ وهو طُرقُ أسفارِهم

قدّمَ البيانُ القرآنيّ القيدَ بالظّرف ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾ على المفعول به ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، ولم يَقُلْ: (وجعلنا قرًى ظاهرةً بينهم وبين القرى)؛ اهتمامًا بالمُقدّم؛ وهو طريقُ مَسايرِهم وتنقّلاتهم وأسفارِهم ومَتاجِرِهم من أرضِ اليمن إلى الشّام، وتشويقًا للمُؤخّر؛ وهو النّعمُ البادية في هذا الطّريق، كما أنّ تقديمَ الظّرفِ هنا - أي: في النّعم البادِيَة في مسايرهم ومتاجرِهم بالأمن وتيسيرِ الأسفار - يتناسبُ مع تقديمِ الظّرفِ في النّعمِ البادية في مساكنهم بالرّخاءِ والبهجةِ وطيبِ الإقامةِ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾.

معنى (اللّام) في ﴿ٱلْقُرَى﴾، ولطيفةُ جمعها:

من بركةِ قرى الشّام تعدّدها وكثرتها

المُراد بالقُرى التي بوركتْ في قوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ قرى بلادِ الشّامِ عند أغلبِ المفسِّرين[1]، فإنّها هي البقعة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 386، والثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 4/ 371، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 415.

المباركة[1]، فهي القرى المعهودةُ عندهم بما حباها اللّهُ منَ البَركة؛ وهي قُرى الشّام التي دلّ عليها قوله تعالى: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: 1]، وقولُه: ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: 71]، فهي للعهدِ الذّكريّ، والتّعبيرُ عنها بصيغة الجمعِ يدلُّ على تعدّدها وكثرتها؛ للتّناسبِ مع سياقِ التّفضلِ والامتنانِ، باجتماعِ النّاس فيها وترابطهم وعدمِ تفرّقهم عن بعضهم؛ بما يزيدهم قوّةً وأُلفةً ومَنَعَةً؛ إذِ القُرى في أَصلها اللُّغويّ تدلّ على جُمَعٍ واجتماعٍ، وسُميّتِ القَريةُ بهذا الاسم لاجتماعِ النّاس فيها[2].

عِلّة التّعبير في الصّفة بالموصول ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا﴾:

في الموصوليّة تقريرٌ لفضلِ اللهِ وامتنانه ببركةِ القُرى

آثرَ البيانُ الحكيم الوصفَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِى﴾ في قوله: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ دون الاسم، فلم يَقُلْ: (القرى المباركة)؛ زيادةً في تقريرِ الغرضِ المسوقِ له الكلام، وهو بيانُ قدرةِ اللّه تعالى، وأنّ له وحدَه الفضلَ والمنّةَ فيما هم فيه من الخيرِ والبَركة.

دلالةُ التّعبير بالبَركة مادّةً وصيغةً:

بركةُ القرى بركةٌ إلهيّةٌ ثابتةٌ دائمةُ النّماءِ والزّيادة

عبّرَ النّظمُ الحكيمُ بلفظ البركة في قوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾؛ للدّلالة على ثباتِ الخيرِ الإلهيّ في هذه القرى ونمائه وزيادته؛ فأصلُ البركةِ يدلُّ على ثباتِ الشّيء[3]، ومن معانيها الزّيادةُ والنّماءُ[4]، وقد عبّرَ بالماضي ﴿بَـٰرَكْنَا﴾ للدّلالة على تحقّقِ هذه البركة، وأتى به على وزن (فاعَلَ) للدّلالة على زيادةِ هذه البَركةِ الإلهيّة وثبوتها؛ أيْ: هي بركةٌ اعتنينا بها اعتناءَ مَن يناظِرُ آخَرَ بغايةِ العظَمة[5]، وأُضيفت البَرَكَة إلى ضمير التّعظيم (نا)؛

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 201.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قرى، قري).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(4) الفراهيديّ، العين: (برك).
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 485.

للدّلالةِ على عظَمةِ هذه البركة؛ أيْ: باركنا فيها بما لنا من العَظَمَة، فالعظيمُ سبحانه لا تكونُ بركتُه إلّا عظيمة.

معنى (في) في قوله: ﴿بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾:

البركةُ مُستقِرّةٌ مُتمكِّنةٌ في قُرى بلادِ الشّام

(فيها) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ حرف جرّ، معناه الظّرفيّة المكانيّة، والجارُّ والمجرور مُتعلِّقٌ بالفعل ﴿بَٰرَكۡنَا﴾، وقدْ عُدّي بالجارِّ مع إمكانيّةِ الإيجازِ بتعديته إليها مباشرةً، بأنْ يقول: (باركناها)؛ وذلك لدلالةِ الظّرفيّة على معنى استقرارِ وتمكّنِ البركةِ في كلّ جزءٍ من أجزاءِ قُرى بلادِ الشّام؛ أيْ: جعلناها محالَّ الشّجر والماء[1]، والعِلْم والرّزق بالأنبياء وأصفياء الأولياء[2]، ولو عبّر بقوله: (باركناها)؛ لاحتملَ أنْ تقتصرَ البَركةُ عليها عمومًا، كما أنّه لم يقلْ: باركنا ما فيها؛ لتكونَ المباركةُ مطلقة، ولا تقتصرُ على الأشياءِ الماديّة فحسب؛ بل تشملُ البركةُ الماديّاتِ والمعنويّاتِ والرّوحانيّات.

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ القرية دونَ المدينة:

قُرًى صغيرةٌ ممتدّةٌ ما بين سبأ والشّام يمرّ بها المسافرُ للاستراحة والتزوّد

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ (القرية) دون المدينة في قوله تعالى: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾؛ لكون القرى أنسبَ مع السّياقِ الذي يتحدّثُ عن كثرةِ هذه القُرى وتجمّعِها؛ إذِ القُرى في أصلها اللّغويّ تدلُّ على جُمَعٍ واجتماعٍ[3]، والقريةُ هي البلدةُ الصّغيرة، وهي أصغرُ من المدينة[4]، بينما المدنُ تدلُّ في أصلها اللّغويّ على الإقامة؛ من مَدَنَ بِالمَكانِ: أَقامَ بِهِ، والمدينةُ هي البلدةُ الكبيرة التي كَثُرَ سكانُها[5]، والسّياقُ هنا لا يدلّ على الإقامةِ في مدنٍ كبيرة كثيرةِ السّكان، وإنّما يدلُّ على

(1) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 530.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 485.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قرى، قري).
(4) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قري).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (مدن).

قرى كثيرةٍ صغيرةٍ متجمّعةٍ متواصلة بين سبأ وبلادِ الشّام يمرُّ بها المسافرُ، فيبيتُ فيها، ويتزوّدُ منها، ويمضي في طريقه.

نُكْتَةُ الجمع في ﴿قُرًى﴾:

في التّعبيرِ بصيغة الجمع في لفظِ ﴿قُرًى﴾ في قوله تعالى: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ دلالةٌ على تعدّدِ هذه القُرى الظّاهرةِ وكثرتها، ومِنْ ثمّ زيادةُ الامتنانِ على أهلِ سبأ، وقد ذُكِرَ أنّها بلغتْ أربعةَ آلافٍ وسبعَمائةِ قريةٍ متّصلة من سبأ إلى الشّام، يُرى بعضُها من بعض لتقاربها[1].

في تعدّدِ القُرى الظّاهرةِ وكثرتها وعظَمتها زيادةُ امتنانٍ على أهلِ سبأ

نُكْتَةُ تنكير ﴿قُرًى﴾:

نُكِّرت ﴿قُرًى﴾ لتفخيم شأنِها وتعظيمه؛ فهي قرًى مع كثرتها عظيمةٌ فخيمةٌ في بنائها وأراضيها ومصانعِها ونفعها وتجارتها التي لا تنقطعُ، فقد كانتْ هذه القرى متجرَهم من أرضِ اليمن إلى أرضِ الشّام على كلّ ميلٍ قريةٌ وسوقٌ[2]، والتّعبيرُ بالتّنكير متناسبٌ مع سياقِ الامتنانِ عليهم، وبيانِ ضلالِهم بكفرهم بهذه النِّعَم العظيمة الفخيمة الجليلة.

التّناسبُ مع سياقِ الامتنانِ عليهم، وبيانِ ضلالِهم بكفرهم

سِرُّ وصف القُرى بالظّهور:

تتعدّد معاني لفظ ﴿ظَٰهِرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، فهي المتقاربةُ المتّصلة بحيثُ يظهرُ بعضُها لبعضٍ، ويتراءى بعضُها من بعض، وهذا المعنى يُؤذِنُ بقُرْبها، وهي الظّاهرةُ التي تظهرُ للسّائرِ من بُعد؛ بأنْ كانتِ القُرى مبنيّةً على الآكامِ والظّراب، يشاهدُها المسافرُ فلا يَضِلُّ طريقَها، أو هي الخارجةُ عنِ المُدُنِ؛ فهي في ظَواهرِ المُدنِ، ومنه قولُهم: نَزَلْنا بظاهرِ المدينةِ الفُلانيَّةِ؛ أيْ: خارِجًا عنها؛ فقولُه: ظاهِرَةً كتَسميةِ النّاسِ إيّاها بالباديةِ وبالضّاحيةِ، فيكونُ في قولِه: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ على ذلك كِنايةٌ عن وفرةِ المُدنِ، حتّى إنَّ القُرى كلَّها

قُرًى متقاربةٌ متّصلةٌ مرتفعةٌ عامرةٌ نِعَمُها كثيرةٌ بيّنةٌ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 60.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 530.

ظاهرةٌ منها[1]، "وجائزٌ أنْ يكون المعنى: نِعمُها بيّنة"[2]، أو ظاهرةٌ بالعُمْران وكثرةِ الماء[3]، ولا مانعَ أنْ يجتمع في هذه الكلمةِ المعاني السّابقة كلّها؛ فهي قُرًى خارجةٌ عن ظواهرِ المدنِ، متقاربةٌ متّصلةٌ مرتفعةٌ عامرةٌ، نِعَمُها كثيرةٌ بيّنةٌ.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَقَدَّرْنَا﴾:

جمعٌ بين نعمةِ اتّصال القرى وتقاربها، وبين نعمةِ الرّفقِ بالمسافر

عَطَفَ القرآنُ الحكيمُ قولَه تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾؛ ليجمعَ في هذه النّعمةِ الإلهيّة لأهلِ سبأ بين ما جعلَ لهم من مدنهم الكثيرة، والقُرى الظّاهرةِ المُتّصلة المتقاربةِ في أشرافِ الأرض كأنّها الكواكب الحسان؛ فيها المالُ والمفاخرُ والنّفعُ والمعونةُ للمارّة، وما قُدِّرَ لهم من تهيئةِ كلّ أسبابِ الرّاحة في السّيرِ بين هذه القُرى في سفرهم؛ بإزالةِ ما فيه عُسْرٌ بعدمِ الموافقة في المَقيل والمبيت؛ فجعلَها على غايةِ الرّفقِ بالمسافر في نزوله متى أرادَ من ليلٍ أو نهارٍ على ما جرتْ به عوائدُ السّفّار[4].

دلالة التّعبير بالتّقدير في الفعل ﴿وَقَدَّرْنَا﴾:

مقاديرٌ في غايةِ الرّفقِ بالمسافرِ، بما يحقّقُ كمالَ الإنعامِ منه سبحانه

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ ﴿وَقَدَّرْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾؛ للدّلالة على بلوغِ ما قدّره اللّهُ من السّيرِ فيها منتهى غايتِه، التي أرادها اللّهُ تعالى بما يحقّقُ كمالَ الإنعام منه سبحانه؛ وذلك لأنّ ﴿وَقَدَّرْنَا﴾ من التّقدير، وأصلُ (قدر) يَدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِه[5]، فقَدْرُ كلّ شيء: قياسُه ومَبْلَغُه، ومن معاني تقديرِ اللّه للأشياء: أنْ يجعلها على مقدارٍ مخصوصٍ، ووجهٍ مخصوصٍ حسبما اقتضتِ الحكمةُ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 439.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 445.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قدر).

أيُّ رفاهيةٍ تلك التي كانت لسبأ في سفرهم!

والمعنى في الآية: جَعَلْنا نِسْبَةَ بَعْضِ القرى إلى بَعْضٍ عَلى مِقْدارٍ مُعَيَّنٍ مِنَ السَّيْرِ؛ أيْ: "إنّ أبعادها على تقديرٍ وتعادلٍ بحيثُ لا يتجاوزُ مقدارَ مرحلة"[1]؛ فمَن سارَ مِن قَرْيَةٍ صَباحًا وصَلَ إلى أُخْرى وقْتَ الظَّهيرَةِ والقَيْلولَةِ، ومَن سارَ بَعْدَ الظُّهْرِ وصَلَ إلى أُخْرى عِنْدَ الغُروبِ، فَلا يُحْتاجُ إلى حَمْلِ زادٍ ولا مَبيتٍ في أرْضٍ خاليَةٍ، ولا يُخافُ مِن عَدوٍّ ونَحْوِهِ[2]؛ أيْ: "يصبحونَ في منزلٍ وقريةٍ وماءٍ، ويُمسونَ في منزلٍ وقريةٍ وماءٍ"[3].

يَسَّر اللهُ على أهل سبأ، لكنّهم عسَّروا على أنفسهم

وجاء الفعل ﴿وَقَدَّرْنَا﴾ بصيغة الماضي للدّلالة على تحقّق وقوعِ هذا التّقدير، واستفادتُهم من آثارِهِ الخَيّرةِ عليهم، وما حقَّقَتْهُ من راحةٍ وطمأنينةٍ وأمنٍ خلالَ سفرهم، إذ كان السّفرُ فيها محدودَ المسافات، مأمونًا على المسافرين، كما كانتِ الرّاحةُ موفورةً؛ لتقاربِ المنازلِ وتقاربِ المحطّات في الطّريق، ورغم ذلك كفروا باللهِ وكفروا بنِعَمِ اللهِ، ومنها هذه النّعم العظيمة.

سرّ الإسناد إلى ضمير العظَمة ﴿وَقَدَّرْنَا﴾:

دقّةُ هذه المقادير وكمالُها في تحقيقِ الرّفق بالمسافرين

يُشيرُ إسنادُ فعلِ التّقدير إلى ضميرِ العظَمة في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ إلى دقّةِ هذه المقادير وكمالها في تحقيقِ الرّفقِ بالمسافرين، في نزولهم متى أرادوا من ليلٍ أو نهار، فهو تقديرٌ من العظيم المنعِمِ سبحانه.

معنى (في) ودلالتُها في قوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا﴾:

الظّرفيّةُ مُؤذِنةٌ بشِدّةِ القُربِ بين القُرى الظّاهرة

(في) في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ حرفُ جرٍّ معناه الظّرفيّةُ على تقديرِ مضاف؛ لأنَّ التّقديرَ في أبعادِ القُرى لا في السَّيرِ؛ إذ تقديرُ السّيرِ تبعٌ لتقديرِ الأبعاد[4]، والجارُّ والمجرور

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.
(3) ابن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 754.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.

مُتعلِّقان بفعلِ ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾ لا بالسّير، والتّعبيرُ بالجارِّ (في) مُؤْذِنٌ بِشِدَّةِ القُرْبِ، حَتّى كَأنَّهم لَمْ يَخْرُجوا مِن القُرى نفسِها[1]، أو تكون بمعنى (بين)، والتّقدير: (وقدرنا السّير بينها).

غرض تقديم ﴿فِيهَا﴾ على المفعول ﴿ٱلسَّيۡرَ﴾:

قدّم البيانُ القرآني الجارَّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المفعول ﴿ٱلسَّيۡرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَ﴾، ولم يَقُلْ: (وقدرنا السّير فيها)؛ لكون الجارِّ والمجرور متعلّقَيْن بالفعلِ ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾، وللاهتمامِ بأبعادِ المراحلِ المقدّرةِ بين القُرى الظّاهرة؛ إذ هي محطُّ اهتمامِ المسافر.

اهتمامٌ بأبعادِ المراحلِ المُقدَّرةِ، إذ هي محطُّ اهتمامِ المسافر

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلسَّيۡرَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلسَّيۡرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَ﴾؛ لكون معاني السّير تتناسبُ مع السّياقِ الذي هو سياقُ الامتنانِ والإنعامِ على أهلِ سبأ؛ بأنْ جعلَ مسافةَ السّيرِ بين القُرى مُقدّرًا مُعيّنًا، بما يحقّقُ الرّفقَ بالمسافرين في نزولهم بها متى أرادوا من ليلٍ أو نهار، فمعنى السّيرُ هو المضيُّ في الأرض، ويكونُ ليلًا ونهارًا، والسّيرُ والمسير: المسافةُ التي يُسارُ فيها مِنَ الأَرض[2]، فالسّيرُ هو من وحداتِ مقاسِ المسافات، يُقال: بينهما مسيرةُ يوم وليلة، فالتّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱلسَّيۡرَ﴾ - الذي يدلّ على المضيِّ من ليلٍ أو نهارٍ، ويدلُّ كذلك على المسافة - ناسبَ ما ورد في السّياق من لفظ ﴿وَقَدَّرۡنَا﴾، وقولِه: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، ولهذا فسّر بعضُهم السّيرَ بالمَقيلَ والمَبيتَ، بحيثُ يقيلون في قريةٍ، ويبيتون في أخرى إلى انتهاءِ سفرهم[3]، واللّام في ﴿ٱلسَّيۡرَ﴾ عهديّةٌ، فهي

السّيرُ أنسبُ للمسيرِ ليلًا ونهارًا بمسافاتٍ مُحدَّدةٍ ومعهودةٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 304، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 486.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سير)، والرّاغب، المفردات: (سار).
(3) ابن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 2/ 755، والسّيوطيّ والمحلّي، تفسير الجلالين، ص: 566.

مسافاتٌ مقدّرةٌ معهودةٌ لأهلِ سبأ؛ أيْ: "سيرًا مُقدّرًا يعرفونه، ويحكمونَ عليه، بحيثُ لا يتيهونَ عنه"[1].

موقع جملة ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ممّا قبلَها ودلالتُه:

سـيرُهـم في القُرى الظّاهرة - أمرًا أو حالًا - امتنانٌ من اللهِ عليهم

جملة ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ في محلّ نصب مقول قولٍ محذوف[2]، والتّقدير: "قلنا لهم سيروا"[3]، أو أن يكونَ الأمرُ بمعنى الخبر، ومعناه: مكنّاهم من السّير، فكانوا يسيرونَ فيها ليالِيَ وأيامًا آمنين[4]، فتكون في محلّ نصبِ حال؛ أيْ: كان حالهم السّيرَ فيها.

مرجع ضمير المخاطبين في ﴿سِيرُواْ﴾، ونُكْتَةُ جمعه:

نعمةُ السّير الآمنِ عامّةٌ لكلِّ أهلِ سبأ

ضميرُ الخطاب في ﴿سِيرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ يعودُ على أهلِ سبأ؛ لأنّ القصّةَ فيهم، وسياقُ الآيات في خطابهم، والضّمائرُ جميعها تعودُ عليهم، وقد جاء بصيغة الجمع، للدّلالة على أنّ نعمةَ السّيرِ بين القرى الظّاهرة - من نعمةِ الأمنِ والرّاحةِ والطّمأنينةِ وغيرِ ذلك - نعمةٌ عامّةٌ تشملُ جميعَ أهلِ سبأ.

غرض الأمر بالسّير في جملة ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾:

أمرٌ على سبيلِ الامتنانِ، سواءٌ كان بلسانِ المقالِ أو الحالِ

الظّاهرُ أنّ ﴿سِيرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أمرٌ حقيقيٌّ منه ﷻ على لسانِ نبيٍّ أو نحوه، بغرضِ الامتنان، وهو بتقديرِ القول؛ أيْ: قلنا لهم سيروا في تلك القُرى[5]، أو أنّه لا قولَ ثَمَّ، ولكنّهم لمّا مُكّنوا من السّير، وسوّيتْ لهم أسبابُه، وجعلَ اللّهُ القُرى على مقادير هي في غايةِ الرّفقِ بالمسافر في نزوله متى أرادَ من ليلٍ أو نهارٍ؛ كانتْ حقيقةً بأنْ يُقالَ لأهلها والنّازلين

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 677.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 83.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 388، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 416، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.

(4) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 328، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 678.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 388، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 538، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.

بها على سبيلِ الامتنان: ﴿سِيرُواْ﴾[1]؛ أيْ: كأنّهم أُمروا بذلك وأُذِنَ لهم فيه[2].

إذا أُمِـن طريقُ السَّفر تراجعتْ مشقَّتُهُ

ويحتمَل أنَّ يكون الأمرُ والقول هو قول التّكوين؛ وهو جعلهم يسيرونَ فيها، وصيغةُ الأمر للتّكوين[3]، وكأنّ اللّهَ تعالى قال للقرى: اجعليهم يسيرون فيكِ، ولشدّةِ سرعة الاستجابة أسندَ الأمرَ إليه مباشرة على اعتبار أنّ القرى استجابتْ، فما عليكم إلّا أنْ تسيروا، أو أنّه أمرٌ بمعنى الخبر، ومعناه: مكّناهم من السّيرِ، فكانوا يسيرون فيها لياليَ وأيامًا آمنين[4].

بلاغة التّعبير بالجناس في: ﴿ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ﴾:

تكاملٌ في نعمةِ السّير؛ إذ قدّرَ لهم السّيرَ الآمنَ وأمرهم به

في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ﴾ بين الكلمتيْن الأخيرتيْن جناسُ اشتقاقٍ؛ لأنّ كلمةَ ﴿سِيرُواْ﴾ مشتقةٌ من السّير، وهذا الجناسُ يُضفي قوّةً ووضوحًا على المعنى الذي يتكاملُ بالصّيغتين؛ فكلتا الكلمتين تدلّ على السّير، أمّا الأولى فتدلّ على النّعمة الإلَهيّة في تقديرِ السّير الآمنِ لقومِ سبأ، وأمّا الثّانية فتدلّ على الفعل؛ أيْ: قدّرَ لهم السّيرَ الآمنَ وأمرهم أنْ يسيروا، كما أنّ تكرارَ الصّيغة الاشتقاقيّة يُعطي إيقاعًا، يجعلُ الآيةَ أكثرَ جاذبيةٍ، ويساعدُ في تيسيرِ حفظها.

معنى (في) ودلالتُها في قوله: ﴿فِيهَا﴾:

في الظّرفيّةِ إيذانٌ بشدّةِ تقاربِ القرى وحلولِ الأمنِ وتمكّنِه فيها

حرف الجَرِّ (في) في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ يفيد الظّرفيّةُ، وهذه الظّرفيّة تَخْييلٌ لاستعارةٍ مَكْنيَّةٍ؛ إذ شُبِّهَتِ القُرى لشّدةِ تقاربها بالظّرف، وحُذِفَ المُشَبَّهُ بِهِ، ورُمِزَ إليه بحرفِ الظّرفيّة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 577، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.
(4) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 328، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 678.

والمعنى: سيروا بينها[1]، ولكنّه عبّر بحرفِ الظّرفيّة للإشارةِ الى أنّ السّيرَ في خارجها كالسّيرِ في داخلها؛ مبالغةً في ذِكْرِ نِعمها لهم من شدّةِ القُربِ، كأنّهم لم يخرجوا منها، أو أنْ تكون (في) على حالها، ولكنْ بتقديرِ مضاف، والمعنى: سيروا في طُرقها، وفي الظّرفيّة كذلك إشارةٌ إلى حلولِ الأمنِ وتمكّنه في كلّ جزءٍ من هذه القُرى، من ليلٍ أو نهارٍ.

مرجع الضّمير في ﴿فِيهَا﴾، ونُكْتَةُ تكرارِه:

ضمير ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ عائدٌ إلى القُرى الظّاهرة التي قدّرَ اللّهُ فيها السَّيرَ الآمن[2]، وقد كرّرَ النَّظمُ الحكيم لفظَ ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾، ولم يَقُلْ: (وقدّرنا فيها السّيرَ سيروا ليالي وأيامًا)؛ لإفادةِ التّأكيد على أنّ السَّيرَ المقصودَ بالامتنانِ هو السَّيرُ في هذه القرى الظّاهرة لا في غيرها.

السّيرُ المقصودُ بالامتنانِ هو السّيرُ في القُرى الظّاهرة

غرض تقديم ﴿فِيهَا﴾ على المفعول ﴿لَيَالِيَ﴾:

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ ﴿فِيهَا﴾ على المفعول به ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾، ولم يقلْ: (سيروا ليالي فيها)؛ اهتمامًا بالمُقدَّم؛ وهو القُرى الظّاهرة، ولفتَ الانتباهِ إلى ما تضمّنته من نِعَمٍ عظيمةٍ؛ من تحقُّقِ الأمنِ بين هذه القُرى وفي طرقها، وتشويقًا للمُؤخَّر، وهو أمنُهم لياليَ وأيامًا.

الاهتمامُ بتحقُّقِ الأمنِ بين القُرى الظّاهرةِ وفي طرقها

سِرُّ تقييد السَّير فيها بـ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾:

دلَّ تقييد السّير في القُرى الظّاهرة بـ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ على كثرة هذه القرى وطولِ مسافتها

الأمنُ حاصلٌ لهم في سيرهم في القُرى الظّاهرة ليلًا ونهارًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 175.

وصلاحيتها للسّير في أيّ وقتٍ أُريدَ من ليلٍ أو نهار[1]، فالأمنُ حاصلٌ لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا[2]، والمعنى: سيروا كَيْفَ شِئْتُمْ[3].

سِرُّ جمع ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾، ولطيفةُ تنكيرهما:

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظي اللّيالي والأيام في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ للدّلالةِ على كمالِ نعمةِ الأمنِ التي تفضّل اللّهُ بها على أهل سبأ؛ إذ يستطيعون أنْ يسيروا في أيِّ وقتٍ شاؤوا من ليلٍ أو نهار، "بخلافِ المواضعِ المخوفةِ، فإنّ بعضها يُسلكُ ليلًا لعدمِ عِلْمِ العدوّ بسيرهم، وبعضُها يُسلكُ نهارًا لئلّا يقصدهم العدوّ، إذا كان العدوّ غير مُجاهرٍ بالقصدِ والعداوة"[4].

كمالُ نعمةِ الأمنِ بسيرهم في أيّ وقتٍ شاؤوا من ليلٍ أو نهارٍ

واللّيلَ أدلُّ على الأمْنِ وأعدَلُ للسَّيرِ في البلادِ الحارَّةِ، والنّهار أدلُّ على كَثرةِ الظِّلالِ والرُّطوبةِ والاعتدالِ الَّذي يُمكِنُ معه السَّيرُ في جَميعِ النَّهارِ[5]، وفي تَنكيرِ ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ إلْماعٌ إلى قِصَرِ أسفارِهم؛ فقد كانتْ قَصيرةً؛ لأنَّهم يَرتَعون في بُحْبوحةٍ مِن العَيشِ، ورَغَدٍ منه، لا يَحتاجون إلى مواصَلةِ الكَدِّ، وتَجشُّمِ عَناءِ الأسفارِ للحُصولِ على ما يُرفِّهُ عَيْشَهم[6].

رفاهيةٌ قوبلت بالجحود لا بالشُّكر

غرضُ تقديم ﴿لَيَالِيَ﴾ على ﴿وَأَيَّامًا﴾:

تَقديمُ اللَّيالي على الأيّام في قولِه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ للاهتمامِ بها في مَقامِ الامتِنانِ؛ لأنَّ المسافرينَ أحوَجُ إلى الأمْنِ في اللَّيلِ منْهم إليه في النَّهارِ؛ لأنَّ اللَّيلَ تَعترِضُهم فيه القُطّاعُ والسِّباعُ[7]، وهو مَظِنَّةُ الخَوْفِ مِن مُغْتالٍ، وأخفى للويل[8]، فقدَّمَ ما

المسافرونَ أحوَجُ إلى الأمْنِ في اللَّيلِ منْهم إليه في النَّهارِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 509.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 176.
(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 293.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 84.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 538، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 176.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.

هو أدلُّ على الأمْنِ، وأعدَلُ للسَّيرِ في البلادِ الحارَّة[1]، أوْ لِأنَّها سابِقَةٌ عَلى الأيّامِ[2].

سِرُّ التَّقييد بالحال ﴿ءَامِنِينَ﴾:

نـعـمـةُ الأمـنِ سببُ استقرارِ الحياة

قيّدَ البيانُ الحكيمُ سيرَ أهلِ سبأ بالحال ﴿ءَامِنِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ إبرازًا لهذه النّعمةِ العظيمة؛ وهي الأمنُ الذي هو سببُ استقرارِ الحياة، وتذكيرًا لقريش بنعمةِ الأمن التي ذكرتها سورةُ قريش ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾ [قريش: 4]، وفيه إشارَةٌ إلَى كَثْرَةِ العِمارَةِ، فإنَّ خَوْفَ قطّاعِ الطَّريقِ والانقطاع عنِ الرَّفيقِ لا يكونُ في مِثْلِ هذه الأماكنِ[3].

نُكْتَةُ صَوْغِ الحال على وزن (فاعِلين):

استمراريّةُ الأمن تُزهِر الحضاراتِ

صيغَ الحالُ في ﴿ءَامِنِينَ﴾ على وزن اسم الفاعل الذي يدلُّ على الثّباتِ والاستمرار؛ مبالغةً في بيانِ عظَمةِ هذه النّعمة؛ فهو أمنٌ ثابتٌ مستمرٌّ عظيمٌ في كلّ أحوالهم وأوقاتهم وأماكنهم بالنّسبةِ إلى كلّ مُلمٍّ[4]، والمعنى: سيروا فيها آمنين مِن كُلِّ ما تَكْرَهونَهُ لا يَخْتَلِفُ الأمْنُ فيها بِاخْتِلافِ الأوْقاتِ، أوْ سيروا فيها آمِنينَ وإنْ تَطاوَلَتْ مُدَّةُ سَفَرِكم، وامْتَدَّتْ لَيالِيَ وأيّامًا كَثيرَةً، أوْ سيروا فيها لَيالِيَ أعْمارِكم وأيّامَها لا تَلْقَوْنَ فيها إلّا الأمْنَ، لَكِنْ لا عَلى الحَقيقَةِ، بَلْ عَلى تَنْزيلِ تَمْكينِهِمْ مِنَ السَّيْرِ المَذْكورِ، وتَسْوِيَةُ مَبادِئِهِ وأسْبابِهِ عَلى الوَجْهِ المَذْكورِ مَنْزِلَةُ أمْرِهِمْ بِذَلِكَ[5].

غرضُ حذف مُتعلَّق الأمان في ﴿ءَامِنِينَ﴾:

في تكاملِ نعمةِ الأمنِ على أهلِ سبأ مزيدُ امتنانٍ وإنعامٍ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلَّقَ الأمان في قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 304.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 202.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.

لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ لإفادةِ العموم، إذ لو ذكرَ أحدَ أفرادِه لاقتصرَ عليه، والمعنى: سيروا فيها آمِنينَ مِن كُلِّ ما تَكْرَهونَهُ، لا يَخْتَلِفُ الأَمْنُ فيها بِاخْتِلافِ الأَوْقاتِ[1]، آمنين من الخوفِ من النّاسِ المفسدين، ومن السّباعِ، وآمِنينَ من الجوعِ والعطشِ والسّغبِ والتّعبِ والضّيعةِ وآفات المسافر وغير ذلك[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى تكاملِ نِعَمِهِ عليهم في السّفر، كما أنّه كذلك في الحضر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَرَكة والزّيادة:

البَرَكةُ أعمّ من الزّيادة، فكلُّ بركةٍ زيادة، وليس كلّ زيادةٍ بركة[3]، والبَرَكةُ أبلغُ من الزيادة؛ فالبَرَكةُ هي الزّيادةُ والنّماءُ مع الثّبوتِ والدّوام، والبَرَكةُ: كثرةُ الخيرِ وتزايده، ولا يُسندُ فعلَ البركةِ إلّا إلى اللّه، ولا يوجدُ لضِدّ البركةِ اسمٌ معروف، فيُقال: قليلُ البَرَكة[4].

البَرَكةُ أعمُّ وأبلغُ من الزّيادة، إذِ البَرَكةُ تختصُّ بثبوتِ الخيرِ الإلهيّ

أمّا الزيادةُ: فضِدُّ النُّقصان، وهي أنْ ينضمّ إلى ما عليه الشّيء في نفسه شيءٌ آخر، وأصلها يدلّ على الفضلِ، والزّيادةُ قد تكونُ مذمومةً كالزّيادةِ على الكفاية[5]، والبَرَكةُ لا تكونُ إلّا في الخير، فلا تكونُ إلّا محمودةً.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 129.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 245، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 416، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 486.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 96، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (برك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زيد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»